١١

سلسلة الأمراء من الهاشميين

بركات الثاني

ابن محمد بن بركات الأول

■ بقلم الدكتور نوح الفقير

الأمير بركات بن محمد بن بركات بن الحسن بن عجلان، شريف حسني؛ ولد بمكة المكرمة عام ٨٦١هـ / ١٤٥٧م، وقيل[١]: ولد عام ٨٥٨هـ.

قال السخاوي -المتوفى سنة ٩٠٢هـ-: (بركات بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان ابن رميثة، السيد زين الدين؛ الحسني المكي، أجلُّ بني أبيه، وأقربهم إلى خلافته، ولد في سنة إحدى وستين وثمانمائة (٨٦١هـ)، وأمه شريفة، ودخل القاهرة في سنة ثمان وسبعين وثمانمائة، وأشركه مع أبيه، ورجع متزايد العز، واستمر يتزايد في الترقي، حتى صار مرجعاً في حل الأمور، وربما سافر لدفع العدو ويرجع مسروراً محبوراً، وقد رأيته غير مرة ومنها في زيارتي - أي لمكة- سنة ثمان وتسعين وثمانمائة (٨٩٨هـ)، وقصدني بمجلس جلوسي، فسلّم عليّ بأدب وسكون، وكان معه حينئذ عجلان وأبو القاسم وعلي من بنيه؛ جمّلهم الله بحياته وحياة أبيه)[٢].

وقال العيدروس -المتوفى سنة ١٠٣٨هـ-: (أمه الشريفة عمرة بنت محمد ابن علي ثقبة، وكنيته أبو زهير، ونشأ في رعاية أبيه أمير الحجاز محمد بن بركات، وتلقى تعليمه على يد عشرات العلماء في مختلف العلوم والفنون، وكان أبوه يشركه في ولاية الحجاز، وينيبه عنه في حالة أسفاره وحروبه، ويرجع إليه في شتى

أموره؛ لما لمس فيه من مخايل الذكاء، وكان مهاباً جليلاً فاضلاً حسن التدبير، ممدوحاً من الشعراء، وخاصة بعد توليه إمرة الحجاز، منهم قاضي القضاة النويري في قصيدة يقول فيها:

السعد جاء إلى الأعيان ينتدب
يا ابن الكرام الذي تسمو به الرتب
يا زينة العقد قد وافتك أربعة
النصر والبشر والإسعاد والأدب
بركات سلطاننا الميمون طالعه
الألمعي الذي ينجح به الطلب[٣].

وقال العصامي -المتوفى ١١١١هـ-: (لم يزل الشريف بركات يتزايد حتى استقل بالملك بعد وفاة والده الشريف محمد سنة ٩٠٣ ثلاث وتسعمائة، وكان السلطان يومئذ محمد بن قايتباي[٤]، وتزايد في الترقي في العلوم والفضائل حتى صار مرجعاً في حل الأمور المشكلات ودفع العدو، كم سافر للأعداء فرجع مسروراً، وبالظفر محبوراً، وقد ترجم له العلامة الشيخ عبد العزيز بن فهد الهاشمي في مؤلف له سماه غاية المرام، بأخبار سلطان البلد الحرام، وساق نسبه في ديباجته، وختمه باستيفاء أخباره وما مدح به.

وملخصه: أنه سمع الحديث بالقاهرة في رحلته الأولى في السنة المذكورة وهي سنة ثمان وسبعين وثمانمائة (٨٧٨هـ)، وأجازه من عدة من البلدان جملة من المشايخ منهم البرهان البقاعي، والجلال ابن الملقن، وإبراهيم ابن قاضي عجلون، والسخاوي، وخلق كثير، وخرّج له أحد العلماء أربعين حديثاً في فضل أهل البيت النبوي سماها: (غاية الأماني والمسرات بعلو سلطان الحجاز أبي زهير بركات)، وذلك في سنة ست عشرة وتسعمائة (٩١٦هـ)، وكانت الحرب بين هزاع وأخيه بركات سجالاً[٥].

ولما توفي هزاع نشبت حروب بينه وبين أخيه جازان سنة سبع وتسعمائة (٩٠٧هـ)، وقتل ولده إبراهيم مع جماعة من عسكره، وعاد بركات إلى مكة مريضاً، ثم مات بها ولده عجلان، وفي سنة ثمان وتسعمائة (٩٠٨هـ) توجّه إلى جهة اليمن، وعاد إلى مكة في غيبة جازان عنها، ففرح به أهلها؛ لظلم أخيه جازان فيها، وبذلوا الهمة في مساعدته ونصرته، وحفروا خنادق علو مكة وأسفلها وحاربوا أعداءه من خلفها، وهزم جازان، وتركهم ولم يتبع منهم أحداً، وقتل جماعة من الفريقين وجرح آخرون،

ثم عاد جازان إلى مكة، فتوجه بركات إلى اليمن، فدخل الأعداء مكة وأهانوا أهلها، وآذوهم لمساعدتهم الشريف بركات وحبهم له، فبينما هم كذلك إذ وصلت جماعة من مصر فخرج الأعداء هاربين، فعاد الشريف بركات إلى مكة في شهر ذي القعدة من عام ثمان وتسعمائة (٨٠٩هـ)، ولكنهم قبضوا على الشريف بركات، ووضع في الحديد مع بعض إخوته وجماعة، وانهزم الباقون وحج بهم كذلك، ثم ذهب بهم إلى مصر، فأنكر السلطان الغوري[٦] ترك مكة في أيدي العصاة، وفي ذلك يقول الشاعر يسلي بها الشريف بركات ويحثه على الصبر:

عزيزٌ على بيتِ النبوَّة والمُلك
مقام على ذُل المهانةِ والفَتْكِ
وأعظَم ما يلقَى الكريمُ من الأذَى
على النفْس ما يلقى من الضيْمِ والضنْكِ
وتلكَ لعَمرُ اللهِ أدهَى مصيبةٍ
أصم بها الحاكي عن الحادثِ المحْكِي
لحا الله دهراً لا يدوم سرورهُ
على حالة إلا استحالَت على وشْك
رحَلْتُم فربعُ الأنسِ ما زال موحشاً
خلياً وستر العزِ أصبَحَ في هتكِ
وغادرتم في الكَربِ جيرانَ طيبةٍ
كذا جيرة البَطحَاءِ والحرم المكي
وأسلمتُمُ كل القلوبِ إلى الأسَى
فهذا الورَى ما بينَ باكٍ ومستبْكِي
ولما استقلت للمسيرِ جمالُكم
وحادى النَّوى يَشكي إلينا بما يشكِي
وسرتُمْ وسار الجودُ يمشي أمامَكُم
وظلت بنو الآمال مِنْ خلفِكُمْ تبكِي
فصبراً أبا عجلانَ للحادثِ الذي
يَؤُولُ إلى عقبى السلامَةِ والفَك
وأنت أبا عجلانَ ملء عُيُونِهم
كمالاً وأَهدَاهم إلى الرشدِ والنسكِ
فليسَ لها إلاك كُفءٌ وصاحبٌ
وما زالَتِ العلياءُ مانعةَ الشرك
وإن نالتِ الأعداءُ منكَ بزَعمها
فيا طالما كانَت بما نِلتَه تَحكِي
ورب ابتسامٍ جاءَ من جانبِ البكا
ورُبَّ بكاء جاء من جانِبِ الضحكِ
أما في رَسُولِ اللهِ يوسف أسوة
لمثلِكَ محبوساً على الظلمِ والإفكِ
أقام جميلَ الصبر في السجنِ بُرهة
فآلَ به الصبرُ الجميلُ إلى الملكِ

فعما قريب يورقُ العودُ بالمنى

وتعبقُ أرجاءُ العلا منكَ بالمسكِ

ويرجعُ باقي العيش حلواً كما مضَى

وتأوي إلى سامِي سَريرك والملكِ

ثم إن الغوري أطلق الشريف بركات من الغل، ورتب له مع جماعته النفقات، ورجع إلى مكة في أواخر سنة تسع وتسعمائة (٩٠٩هـ)، فظفر في طريقه بقاصد أعدائه، وقتل جماعة من الأتراك الشريف جازان، وتولى أمر مكة حميضة، ووصل الشريف بركات وقد وقف الناس بعرفات، وهرب حميضة ودخل بركات مكة، ثم توجه إلى زيارة جده المصطفى ﷺ، ثم قصد جهة الشرق فتزوج بالشريفة غُبيَة بنت حميدان بن شامان الحسيني، وأنجبت السيد الجليل في المجد الأثيل ذي العز والسعد أبي نمي محمد سنة إحدى عشرة وتسعمائة (٩١١هـ).

وارتفع بولادته كل شر منذ ظهر، وتوالت على والده البشائر، وصفت منه عن الأكدار السرائر، وكان والده يمسح على ناصيته ويقول: كنت في أكدار وكروب متوالية، حتى ظهرت لي هذه الناصية، ولم يزل أبو نمي راقياً معارج المجد، مستخدماً للإقبال والعز والسعد، ثم إن الشريف بركات أرسل ولده الشريف أبا نمي إلى القاهرة وصحبته القاضي صلاح الدين بن ظهيرة الشافعي، والقاضي نجم الدين بن يعقوب المالكي وذلك في سنة ثمان عشرة وتسعمائة (٩١٨هـ)، فأكرمهم السلطان الغوري وقابلهم بكل جميل، وحكي أن السلطان الغوري وضع أبا نمي في حجره وقال: ما سورتك؟ فأجابه: ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا**﴾[٧]، فأعجب الغوري ذلك وتفاءل به، وأشركه مع والده الشريف بركات في نصف ولاية مكة، وهو بذلك السن، فصار يخطب له مع أبيه على منابر الحرمين الشريفين.

وكان رحمه الله شهماً عند الوفاء وحفظ العهود، وإكرام الشعراء والوفود، مع العفة والصيانة، وملازمة الخير والديانة، وإظهار الخيرات، ومواصلة المبرات، أوقف بعض الجهات على أنواع الصلات، وأسكنه الفقراء في حياته، وأقر الله عينه بمشاركة ولده أبي نمي له في الولاية كما شارك هو والده، ثم لما قدر الله

تعالى زوال دولة الغوري، وأفضى ملك مصر والحرمين إلى مولانا السلطان سليم خان، وذلك في رجب سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة (٩٢٢هـ) أقر الشريف بركات على ما كان عليه من الولاية، وأبقى أبا نمي على مشاركة والده، فعاد أبو نمي قرير العين، واستمر الشريف بركات مشاركاً له ولده أبو نمي حتى قضى نحبه سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة بمكة الشريفة على فراشه، قال العيردوس - المتوفى سنة ١٠٣٨هـ-: (الشريف بركات والياً على الحجاز حتى وفاته عام ٩٣١هـ[٨] وله من العمر إحدى وسبعين سنة)[٩]، وفي شذرات الذهب أنه توفي سنة ٩٣٠هـ[١٠].

الهوامش:

١ . الأعلام للزركلي ج ٢ / ص ٤٩.

٢ . الضوء اللامع ج ١ / ص ٤٨٤.

٣ . النور السافر عن أخبار القرن العاشر ج١ /ص ٧٩.

٤ . محمد بن قايتباي الملك الناصر ولد ٨٨٧ هـ/١٤٨٢م وتوفي ٩٠٤ هـ /١٤٩٨م من ملوك دولة الجراكسة في مصر والشام والحجاز، بويع بمصر وأبوه على فراش الموت (سنة ٩٠١ هـ).

٥ . سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي للعصامي ج ٢ / ص ٤٢٩.

٦ . قانصوه الغوري: الملك الأشرف ولد٨٥٠ هـ/١٤٤٦ وتوفي ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م.

٧ . الفتح ١.

٨ . ٩٣١ هـ- ١٥٢٥ م، أنظر الأعلام للزركلي ج٢ / ص ٤٩.

٩ . النور السافر عن أخبار القرن العاشر العيردوس ج ١ / ص ٧٩.

١٠ . شذرات الذهب ابن العماد ٨/ ١٦٤ .